للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٦ —

« لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا ... ومن هذه الناحية كان البغض بين المحبين — حين يقع — أعنف ما في الخصومة ، إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما المنتجة . وأكبر خصيمين في عالم النفس (هما) متحابان تباغضاً ... » (الرافعي)

السحاب الأحمر

ترى ماذا كتبت إليه صاحبته بعد ما قرأت رسائل الأحزان فأثارت نفسه بعد هدأتها وردّته من الغيظ والحنق إلى أن يقول : « يا هذه لا أدري ما تقولين ؛ ولكن الحقيقة التي أعرفها : أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون وهيهات .. ! » ويقول : « يجب على المدارس حين تعلّم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها » ؟

مَن لي بأن أعرف ما كان وقع رسائل الأحزان في نفسها وما ردّت به ؟

إنه يتحدث في السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام الذي لا يغسله الماء والصابون ، والنجمة الهاوية ، وخداع النظر في الحب ، وفساد الرأي في الهوى ، وطيش القلب في الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المفقودة في تاريخ هذا الحب ، فلست أدعي المعرفة ؛ ولقد كنت مع الرافعي مرة في مكتبه وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لي بعض فصوله ، فأشرت إليه عند فقرة من الكلام ليجيبني عن سؤال يكشف عن شيء من خبرها ومن خبره ؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدّق فيّ طويلاً ثم سكت ، وسبحت خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تعبث بما على المكتب من أشيائه ، ثم قال : « أرأيت القلم الذي تراءى لي السحاب الأحمر في نصابه بين عينيّ والمصباح ... ؟ » ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ودفعه إليّ وهو يقول : « ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر . ألست ترى سحاباً يترقرق بالدم كأن قلباً جريحاً ينزف ؟ في شعاعة هذا النور تراءت لي هذه الخواطر التي تقرؤها في السحاب الأحمر ... » ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

* * *

أحسب أن الرافعي حين أنشأ السحاب الأحمر كان في حالة عصبية قلقة لست أعرف مأتاها ومردّها ، ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها في شيء من الغموض والإبهام

لقد أنشأ الرافعي رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه ؛ ولست أشك أن صاحبته حين تأدّت إليها رسائله قد فهمت ما يعنيه وعرفت ذات صدره ، وأحسبها — وهي الأديبة الشاعرة — قد سرّها أن تكون هي فَلَك الوحي لما في رسائل الأحزان من كل معنى جميل . أفتراها قد بدا لها أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنُّع الغضب لتفتنه وتزيده وحياً وشعراً وحكمة ... ؟

إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبرياءه وأثارت نفسه ، فكتب كتابه ولكن لغير ما أرادت وما قصدت إليه ...

* * *

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، يدور حول فلسفة البغض ، وطيش الحب ، ولؤم المرأة ... !

على أن كل ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أن قلباً وقع في أسر الحب يحاول الفكاك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصيح بملء ما فيه : إنني أبغضك أيتها ... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأي في بلواه ، كذلك فزع الرافعي في السحاب الأحمر ، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره ؛ فهذا صديقه الشيخ على صاحب الساكين ، وهذا صفيّه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعي ؛ وذلك أستاذه ومثله العالي

فى دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ وهذه أم ضل ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن ؛ وهذا ، وهذه ، وتلك ، يحدثونه جميعاً حديثهم عن الحب فى رأى العين ، وفى رأى القلب ، وفى رأى العقل ، ويحدثهم حديثه ... فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعاً إلا أن الرافعى فى جهاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبته برأيه وفكره وكبريائه ، ثم لاتكون الغلبة فى النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه

على أن كتاب السحاب الأحمر ليس كله خالصاً لصاحبته وإن يكن من وحيها ؛ ذلك أن نسقه العجيب ، ومحاولة الرافعى به أن ينصرف عنها ، قد شرع له فى الكتاب مسالكَ من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبته

* * *

فى الفصل الأول من السحاب الأحمر ، يتحدث الرافعى عن فتاة « عرفها قديماً فى ربوة من لبنان ، ينتهى الوصف إلى جمالها ثم يقف ! » وهو يعنى صاحبته التى أملتْ عليه «حديث القمر» وإنك لتقرأ حديثه عنها ، ووصفه لها ، وما كان من أثرها فى نفسه ؛ فتسأل نفسك : أى شئ ردَّه إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها فى نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محا الزمان بها فى قلبه وأثبت ؟ فلا تلبث أن تجد الجواب فى الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يُفهِم ثم يعلو فى معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يُفهَم ثم يَسفل فى معانيه الخسيسة إلى أن يبتذل ...

« إن من المرأة ما يُحبّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكرَه إلى أن يلتحق بالكفر ...

« من المرأة حلو لذيذ يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرٌّ كريه يشبع منه بلا أكل ... ! »

أتراه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة ، ليقول لهذه : إن تلك كانت خيراً منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف من أخلاق الرافعى أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة فى الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبته ليردَّها إليه ، أو أنه أراد أن ينقذ كبرياءه فيزعم لصاحبته أنه لم يكن يعنيها برسائل الأحزان ، لأن هنالك أخرى ...

* * *

وتقرأ « النجمة الهاوية » فى الفصل الثانى ، فتسمعه يقول : « تمّ آمالُنا حين لا نؤمّل ! » فما تشك أن هناك رسالة إليها ، رسالة يمليها الحب المغيظ المحنق ، يحاول فيها أن يوهمها أنها لم تعد شيئاً فى نفسه ، وأنه قد تمت آماله واستراحت نفسه فليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء ؛ ثم يستطرد فى معانى البغض والهجر والقطيعة بأسلوب قاسٍ عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض فى كلماته ؛ فما ينتهى الفصل حتى يستعلن حبه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم النساء على نفسها من لا تُحِب ولا تُبغِض ، وأشأمهن على الناس من إذا عدَّتْ مبغضيها لا تَعُدّ إلا الذين أحبوها ... ! » وإننى لأعرف الرافعى وأستمع إلى همسات قلبه ، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول : « إننى أحبك يا أشأم النساء ! » ؟

اقرأ فى آخر هذا الفصل الصاخب قوله :

يامن على الحب ينسانا ونذكره ... لسوف تذكرنا يوماً وتنسا كا

إن الظلام الذى يجلوك يا قمرٌ ... له صباح متى تدركه أخفا كا

* * *

ويتحدث فى الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى قضائه ، وزوجته التى تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة ؛ فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين ، أىّ خاطرة فى الحب ألهمته هذا الفصل البديع ، وكأنك تسمع الرافعى يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق : « ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح المفارقة أجسامَها بمسّ الفناء لأن أرواحاً أخرى فارقتها ؛ ففى الموت يُمسّ وجودُنا ليتحطم ، وفى الفراق يُمسُّ ليلتوى ؛ وكأن الذى يقبض الروح فى كفه حين موتها ، هو الذى يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه !

« وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ؛ فعند الفراق تنتزع قطعة من وجودنا فنرجع بأكين ونجلس فى كل مكان محزونين كأن فى القلوب معنى من المناحة على معنى من الموت ..

« ... ترى العمر يتسلل يوماً فيوماً ولا نشعر به ، ولكن متى

فارقنا من نحبهم بهجة القلب فينا بغتة معنى الزمن الراحل ، فكان من الفراق على نفوسنا انفجارٌ كتطاير عدة سنين من الحياة ... »

* * *

ويتحدث فى الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب[1] ، وعن المنافق ، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه ، وإنه ليسبب مما كان بينه وبين صاحبته ؛ أفتراه يشير به إلى شىء من أسباب القطيعة ؟

وفى الفصل السادس يتحدث عن حب الأم في قصة والدة ضل ولداها الصغيران ثم اهتدت إليهما :

« الحب ! ما الحب إلا لهفة تهدر هديرها فى الدم ، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا فى قلب الأم على طفلها ... حب الأم فى التسمية كالشجرة : تغرس من عود ضعيف ، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها ، ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تفنى عداد أوراقها ليالىَ وأياماً . وحب العاشقين كالثمرة : ما أسرع ما تنبت ، وما أسرع ما تنضج ، وما أسرع ما تقطف ؛ ولكنها تُنسى الشفاهَ التى تذوقها ذلك التاريخَ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء فى الشجرة القائمة

« لا لذة فى الشجرة ولكنها مع ذلك هى الباقية وهى المنتجة ، ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هى الحلوة وهى اللذيذة وهى المنفردة باسمها

« وهكذا الرجل أغواه الشيطان فى السماء بثمرة فنسى الله حيناً ، ويغويه الحب في الأرض بثمرة أخرى فينسى معها الأم أحياناً ! »

* * *

وتراه فى الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ، ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل ، وليس هو إنسانية الانسان ، وليس هو كل مافى الحياة من لذة ومتاع ، في كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه : الشيخ على ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده ؛ يحاورهم ويحاورونه ، فتستمع فى هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه ، وإلى الصراع بين عقله وهواه

إن الرافعى بكبريائه وخلقه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يُخلق للحب ! ولكنه أحب ؛ فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام ، وصراعاً دائماً بين طبيعته التى هو بها هو ، وفطرته التى هو بها إنسان . وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم فى كل فصل من فصول السحاب الأحمر

* * *

وفى كتاب السحاب الأحمر ، تقرأ رأى الرافعى فى القضاء والقدر ؛ وإنه ليشعرك برأيه ذلك مقدارَ ما فعل به الحب وما فلّ من إرادته ، فتراه يؤمن بأن الانسان فى دنياه ليس له كسبٌ ولا اختيار فيما يعمل ، ولكنه قضاء مقدور عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه ؛ وإنه على ذلك لموقن بأن لله حكمة فيما قضى وقدر وإن دقت حكمته على الأفهام :

« ألا يا ماء البحر ، ما أنت على أرض من الملح ؛ فماذا أصبحت زُعاقاً لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لستَ على أرض من الملح ولكنك يا ماء البحر ذابت فيك الحكمة المِلْحة ... ! »[1]

* * *

قلت فى مقالى السابق : إن رسائل الأحزان عند أكثر قراء العربية هو شىء من البيان المصنوع تكلّفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فنّاً فى العربية لم يوفق إلى تجويده ... لأنه بقية قصة لم تنشر معه — هى قصة غرام الرافعى — فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تبقى منه إلا على الهامش والتعليق وصلبُ الكتاب رماد فى بقايا النار

أما السحاب الأحمر فهو كتاب كامل . احذف منه فصلا أو فصلين فى أوله ، وشيئاً من فضول القول فى سائره ، تجد فناً فى العربية لا يقدر عليه إلا الرافعى ، فجرِّدْهُ من قصته أو انسبه إليها فانك واجد فيه أدباً يستحق الخلود ، وبياناً يزهى على البيان ، وشعراً وحكمة ما زال الأدباء يدورون عليها حتى وجدوها فى أدب الرافعى

* * *

فى رسائل الأحزان أراد الرافعى أن تعرف صاحبته من حاله ومن خبره ما أراد ، فأغراها بالترفع والدلال عليه . وفى السحاب

(١) هذا الفصل فى السحاب الأحمر بعنوان « الربيطة » كتبه الرافعى عن صديق من خريجى جامعات أوربا ، هو الدكتور فلان ، وكان فى صدر شبابه — كأكثر واردات أوربا — زيفا فى الدين ، وزيفا فى الخلق ، وزيفا فى الرجولة ؛ على أنه الآن من أكثر المسلمين حمية لدينه وحفاظاً على تراث قومه ؛ وله مقالات فى الاسلام وفى الرد على بعض جهال المستشرقين تشفع له يوم الدين

(١) إلى الآنسة أ . ش : أن تقرأ هذه الفقرة من كلام الرافعى ؛ فان فيها الجواب عن بعض سؤالها ، وشفاها الله !